

وهذا القائد ميناَس يُعَبِّرُهُ بسبي ابنتيه، ويوشك أن يتهمه في وطنيته وفي شجاعته ومُصابرته، فيدافع دفاع الغضبان، ثم لا يلبث أن يغلبه الدمع.  
يا للبطريق الشيخ! دَرِيَّةٌ من درايا قومه<sup>١٤</sup> يتلقَى عنهم سهام العدو، ففي كل موضع منه جراحة لم تلتئم، ويتهمه قومه بالجبن والخَوَر ...! وابتناه ... أين هما اليوم؟

أحظيَّتَانِ في بعض بيوت الأمراء والسادة، أم جاريَتَانِ مُمْتَهَنَتَانِ في بعض بيوت الرُّعاع والسوقة؟

أولَدَتَا لبعض العرب جُنْدًا يُشْهَرُونَ السيوف في وجوه بني الخال والخاله من سادة الروم؛ أم آثرتا الموت على ذُلِّ الإِسَار أو آثرهما الموت؟  
أتذكرانه كما يذكرهما ويذكرهما معه الإخوة والأخوات وبنو الأعمام والعَمَّات، أم استبدلتا في العرب أهلاً بأهل؟ وباعتا بالسيد والولد الأب والأم والإخوة والأخوات؟  
في أيِّ البلاد تعيشان؟ أو في أيِّ الأرضِ سُويَّ عليهما التراب؟  
ابنتا البطريق المُعْظَم، جاريَتَانِ قد انقطعت بينه وبينهما الأسباب؛ فيا له من الفجيعة في ابنتيه، ويا له من بذاءة بعض قومه!

قال أنسطاثيوس الصالح: هوَّن عليك يا قسطنطين؛ فقد عَلِمَ — والله — كل رومي في هذه البلاد بَلَاءَكَ في جهاد العرب؛ فلا عليك من قولٍ لم تحمل عليه إلا الغيرة.

وَبُويَع أنسطاثيوس قيصرًا؛ فراح يحاول ما يحاول لتدبير أمر البلاد وتنظيم قوات الدفاع، ولكن غارات العرب المتتابة لم تَدْعُ له فرصة للتدبير ولا لتنظيم قوات الدفاع؛ فنالوا منه ولم ينل منهم، وتوالت هزائمه في البر والبحر، فاعتزل العرش إلى بعض الأديار حزينًا أسوان، يلتمس في الصلاة والدعاء بعض السُّلوان.  
ووثب إلى العرش سوقِيٍّ آخرُ كان جابِيًا للخَرَاج في بعض الأقاليم؛ فلم تكن حال البلاد في عهده خيرًا منها في عهد أسلافه، واضطرب به الأمر وأحاطت به الأحداث ... وكان العرب — وقتئذٍ — يتأهبون للغارة الكبرى تحت راية مسلمة ...

<sup>١٤</sup> قوة من قوى الدفاع عن قومه.